بانياوات الأسرى المسيحيين
في الجزائر خلال العهد العثماني (1519-1830م)

قرباش بلقاسم
قسم التاريخ
جامعة معسكر

يعتبر **البانيو**[1] إحدى أهم الأدوات والشواهد لفهم حالة الأسرى الأوربيين بالجزائر خلال العهد العثماني، بحيث أعطت لنا تحليلا دقيقا لوضعية هؤلاء الأسرى (الأشغال، الطعام، اللباس، العقوبات). وأغلب ما كتب عن الموضوع هو مجرد إشارات في المصادر، ولا تزال هذه السجون حتى اليوم مجهولة من قبل الباحثين، ما يجعل البحث فيها أمرا صعبا.

إن المدرسة الغربية كان لها الدور البارز في كتابة تاريخ المنطقة، بحيث ساهمت في تشويه صورة الجزائر في المجتمع الأوربي، خاصة في المجتمعات الفرنسية والاسبانية والإيطالية؛ وفيما بعد الانجليزية والأمريكية وحتى الألمانية والهولندية، معتمدة في ذلك على وضعية الأسرى في هذه السجون. فنظرة هذه المصادر في أغلبها انطلقت من توجهات إيديولوجية معينة، ولهذا لم تكن لتختلف في طرحها لموضوعات كالقرصنة، العبودية، القسوة، المعاملة... كل هذه الصفات ألصقت بالجزائر باعتبارها بلد معادي للمسيحية والمسيحيين.

ما هو العدد؟

يقدم لنا الأب دان في تقريره أكثر من 100 ألف ساكن بمدينة الجزائر، 15 ألف منزل، و100 ينبوع، و18 ألف حديقة تزيّن الضواحي، و6 سجون تضم 30 ألف أسير يشتغلون في إصلاح السفن وخدمة "أسيادهم".[2] يضاف إليها السجون المملوكة للرياس وأثرياء المدينة، ويبقى عدد هذه السجون غير دقيق، فالأرقام المقدمة لنا تختلف من مصدر لآخر.

ومع أواخر القرن السابع عشر، قل عدد هذه السجون، سواء تلك التابعة للدولة؛ أو الخاصة بكبار رجال الدولة، وهذا راجع لعدة أسباب نذكر منها:

- تراجع عائدات القرصنة la Course.

- معاهدات الهدنة، والتي يتم بموجبها حماية الدولة المهادنة من التعرض لهجمات القراصنة الجزائريين Les Corsaires، وتعتبر هولندا أول دولة أوربية عقدت هدنة مع الجزائر، مقابل أن تدفع مبلغا سنويا.

- كان يمكن للأفراد أوائل العهد العثماني المساهمة في البحرية الجزائرية بأسهم معينة، مقابل فوائد تعود على أصحابها، لكن مع أواخر العهد العثماني تراجع هذا الدعم، حيث انتقل هؤلاء للعمل في التجارة والأشغال العمومية الأكثر ربحا.

إن قوة الجزائر البحرية اعتمدت بشكل كبير على الأعلاج، والذين كانوا إما أسرى مسيحيين تم تربيتهم تربية إسلامية، أو مسيحيون جلبوا إلى الجزائر كأسرى، وهؤلاء هم من كانوا يملكون أغلب البانياوات الخاصة، ولعل أشهرهم علي بتشنين[3] "أحد أكبر أغنياء المدينة خلال القرن السابع عشر، حيث كان يملك منزلين فاخرين، يقع الأول أسفل المدينة؛ أما الثاني فيوجد بالقرب من البحر... وله سجون تضم أكثر من خمسمائة أسير".[4] ومما قاله: " أنا أشتري العبيد للحصول على بعض الفوائد"[5]، وكان هذا الأخير يرفض دخول أسراه المسيحيين في الإسلام ويمنعهم بكل الطرق.

بلغ عدد الأعلاج في المدينة خلال القرن السابع عشر، حوالي 20 ألفا حسب هايدو، و12 ألف حسب قرماي، وفي سنة 1769م لم يتبقى منهم سوى ألفين أو ثلاثة آلاف ... ونفس الشيء فيما يخص العبيد ... أما السجون التي كانت تكتض بها الجزائر، "السجون الشخصية، وسجون الرياس"، هي اليوم فارغة ومغلقة فأغلبها هدم وسقط، باستثناء سجن البايلك وجاليرا وسيدي حمودة. هذه السجون الثلاثة لم يكن يتجاوز عدد أسراها ألف وثمانمائة أسير.[6]

وهناك أيضا سجن "طبرنة التماكين" (Taverne des Boitiers)، وهو أحد أقدم السجون في الجزائر (حسب بربروجر)، كان يقع بالقرب من إدارة الألغام خلال فترة الاحتلال الفرنسي.[7]

وفي أواسط القرن السابع عشر كان هناك ثلاثة سجون كالآتي: سجن الجنينة أو الباشا، وسجن Douane، وأخيرا سجن شلبي.[8] يضاف إلى هذه السجون "السجن الكبير" والذي يبدو أنه وجد قبل سنة 1551م، حيث أنشأ به سيبستيان دي بوزو مستشفى لمعالجة الأسرى المسيحيين، و"سجن الملك"، الذي وجد قبل سنة 1546، وهي السنة التي أسس به الأب سيبستيان مصلى أو كنسية صغيرة[9]، ولعل هذا السجن هو نفسه "سجن الباشا". ويذكر دوتاسي، الذي أقام في الجزائر ، أنها كانت تضم خمسة سجون هي ملك للدولة، يدير شؤونها حارس باشي[10].

أما سجن الديوان فقد كان مخصصا للجنود الأتراك ممن يرتكبون المخالفات، حيث لا يمكن أن يدخل الأتراك ومن كان من نسلهم إلى سجن آخر غيره.[11]

يضاف إلى هذه السجون التابعة للدولة، سجون مملوكة لأثرياء المدينة وقادتها، فخير الدين كان يملك سجنا خاصا به، وفي هذا الشأن يقول هايدو: "بعد أن تم توجيه هذه السفن السبعة، والعدد الهائل من الأسرى للجزائر، اختار خير الدين الأسرى المهمين؛ وكان من بينهم ابنة القائد

بورتندو Portundo وجميع قادة السفن، حيث تم وضعهم في سجنه"[12] ، وهناك أيضا سجن حسن باشا، وتذكر الروايات أنه بعد انتصاره في مستغانم سنة 1558م، قام بوضع العديد من الأسرى به، وأمر برفع العلم فوقه، كما أنه أعلن "أن كل مسيحيّ يصبح مسلما ويعمل ضد ملك ابن العباس[13] تمنح له الحرية... وقد استغل العديد من الأسبان الفرصة".[14]

وهناك أيضا سجون الباشا، وهي عبارة عن منازل "ويستحسن القول أنها إسطبلات" يضع فيها عبيده، منها " السجن الكبير" الذي تبلغ مساحته 70 قدما على الطول؛ و40 على العرض... وتضم أكثر من 40 أسير من مختلف الجنسيات، فيها أطباء ومثقفون وأساتذة.[15]

كان يقع هذا السجن في شارع السوق الكبير، وفي عهد حسان باشا (العلج الفينيسي)، أصبح يضم في بعض الأحيان من 500 إلى 2000 أسير مسيحي، وهناك نوع آخر من السجون تسمى الباشتارد (Bastarde) ليست كبيرة جدا، ولكنها مقسمة إلى عدد كبير من الغرف، مخصصة للأسرى المملوكين للجماعة، والذين يسمون عبيد المخزن، لأنهم يعتبرون ملكا للجماعة والمدينة، تضم هذه السجون من أربعة إلى خمسمائة أسير لا أكثر.

ووفقا لأنتونيو دو سوسا Antonio de Sosa، فأن هذه السجون العامة (الباشتارد)، كانت مملوكة للمدينة وهي مخصصة للعبيد المشتغلين بالمعامل الجزائرية، والتي كانت تضم أواسط القرن السادس عشر بين الخمسمائة والستمائة أسير، يعشون في ظروف قاسية.[16]

وتوجد هناك أيضا الملكية الفردية الخاصة بالسكان العاديين، حيث كان يحق لهم شراء الأسرى من سوق العبيد للعمل لديهم، سواء في المنازل أو المزارع. تذكر ماريا مارتين والتي عاشت في الجزائر أوائل القرن التاسع عشر، أنها بيعت لأحد السكان، الذي سجلها عند القاضي كملكية خاصة، حيث كلفت برعاية ابنه.[17]

من الداخل!

البانيو: يعتقد الكثير أن كلمة (bagne) الفرنسية جاءت لأول مرة من اللغة الايطالية (bagno) ، في حين يرى آخرون أنها جاءت من اللغة الاسبانية (bano)،[18] والبانيو هو عبارة عن منشأة مخصصة للأسرى المسيحيين في الجزائر، ويسمى بالتركية (Zindan)، كانت مساحته تتراوح بين 80 قدما طولا، و20 إلى 40 عرضا، وتختلف هذه المساحة من سجن لآخر على حسب الأهمية.

يذكر بليفار: "لقد كان العبيد يتوزعون على ثلاثة بانياوات أو سجون، وهي عبارة عن صروح ضخمة وواسعة، غرفها مظلمة جدًّا، يمكنها أن تضم بين الخمسين والستين عبدا، في حين أن السجون إجمالا كانت تستوعب خمسمائة عبد، وفي حالة عدم وجود غرف ينام هؤلاء العبيد في الممرات، أو على السطوح"[19]

في حين يرى آخرون أن كل غرفة كانت تضم اثنا عشر عبدا (يبدو هذا الرقم أقرب إلى الواقع) وتتشكل النوافذ من قضبان حديدية مقوسة ذات ثلاثة أو أربعة إنش لكل واحدة، بدون ألواح زجاجية، ويوجد في أدنى الجدران سلسلة ثقيلة من حلقات طويلة مثبتة في رزيرات، مع دقة في النهاية، حيث يحبس المشوشون إما عن طريق الرجل أو العنق حتى الصباح؛ وهذا جزاءا لجرائمهم".[20]

ويقسم السجن إلى طابقين؛ وبدورهما يقسمان إلى مجموعة من الغرف الصغيرة، وفي وسط السجن يوجد خزان ماء، وفي الأسفل توجد الكنيسة التي يقام فيها القداس[21]. أما أسرى الحاكم، فشقهم تقع على امتداد دهليز، بالقرب من المخازن المخصصة للتدبير المنزلي، وهي عبارة عن غرفة كبيرة حيث يأكل العبيد وينامون، وبه يوجد مطبخ مخصص للعبيد، إلى جهة الحديقة بواسطة ممر مغطى ومرصوف تمر به أنابيب يجري فيها ماء من أعذب وأجمل ما في العالم".[22] وكان للداي الحق في اختيار الثمن من الأسرى المجلوبين إلى الجزائر، ويفضل قادة السفن، الأطباء، النجارين، وأصحاب الحرف، بعد الاختيار يوجهون مباشرة إلى السجون العامة.[23]

أما سجن علي بتشنين، فكان عبارة عن بناية واسعة يوجد فيها مدخل ضيق، يؤدي إلى قبو كبير ومنه يدخل جزء بسيط من الضوء من شباك علوي، والذي لم يكن كافيا مما يستلزم إبقاء الفوانيس مضيئة كامل اليوم. ويوجد في الأقسام العلوية من البناية فضاء واسع يضم مجموعة شرفات لطابقين علويين، ويوجد بينهما عدة غرف، ومعبد واسع للأسرى يكفي استقبال 300 شخص.[24]

وفيما يخص الرقابة والتنظيم فتختلف من سجن لآخر، فسجون الدولة أو البايلك كانت أكثر رقابة وتنظيما، على عكس سجون الخواص، حيث كان البانيو بالنسبة للأسرى مرقدا، وفي النهار يتدبر الأسير أمره، مقابل أن يمنح سيده نسبة معينة من هذا الدخل، "فقد كان هؤلاء الأسرى يمارسون السرقة وكل أنواع السفالة. فالمواد التي يسرقونها في اليوم السابق تعرض للبيع في اليوم الموالي صباحا في المزاد العلني".[25]

ويذكر ديغرامون أن هذه السجون كانت مركزا للإدمان والخلاعة، فالسرقة والتعصب يمارسان بشكل واضح، خاصة أولئك الذين فقدوا الأمل في الحرية والعودة إلى الديار، فالكثير منهم انتحر والباقون ارتدوا وانظموا لقوات العدو. وهناك تقاة ومتدينون أصبحوا اليوم خالين من كل إيمان، واتبعوا أعمالا متطرفة.[26]

وتسيّر هذه السجون في الغالب من قبل الأتراك، فهناك الحارس باشي وهو المسؤول عن تنظيم السجون، والباشي حارس- باشي أو الحاكم العام، وهو المسؤول عن تحضير الأسرى للخروج إلى العمل... ويقدم أيضا تقريرا مفصلا إلى الداي لما يحدث في هذه السجون.[27]

وقد ألحق بكل سجن تابع للدولة مستشفى صغير، مخصص لعلاج الأسرى المسيحيين، وفي كثير من الأحيان كانت هذه المستشفيات تقوم بعلاج الجزائريين، ولعل هذا ما يثبت أن حالة الأسرى في الجزائر كانت تهم الدولة، عكس ما تروج له الكتابات الغربية، التي تعتبر أن حالة الأسرى كانت صعبة جدا، في الوقت الذي لم تكن تضم سجون المسلمين في الغرب مستشفيات أو مساجد لأداء طقوسهم الدينية.

ويذكر الأب مونري Manroy، سنة 1612 قائلا: "إن الأتراك والجزائريين كانوا غالبا ما يأتون إلى هنا (أي المستشفى)... لقد كان أمرا عجيبا بالنسبة إليهم أن يروا الأرقاء المسيحيين لهم مثل هذه المؤسسة في مدينة الجزائر... فلم يوجد لديهم مؤسسة ممثالة لمرضاهم"، وفي القرن الثامن عشر، أصبحت هذه المستشفيات أوسع بكثير مما كانت عليه.[28]

في سنة 1546 قام الأب سيبستيان[29] بزيارة للجزائر، في مهمة لافتداء الأسرى، والذي اعتبر أن صحة الأسرى مهمة جدا، فقام بإنشاء مستشفى سنة 1551م، وسمي باسم صاحبه وألحق بالسجن الكبير، وأعلن الراهب برنارد دومنروي (Bernard Monroy)، في رسالة مسجلة بتاريخ 16- 05- 1612م عن بناء مستشفى الثالوث المقدس، في غرفة استمرت حتى الاحتلال الفرنسي موجودة دون استخدام، بالقرب من المصلى، في حانة سجن البايلك، على موقع من طريق باب عزون.[30] وشهدت سنة 1646م، ترأس سانت فينسن (Saint Vincent) لبعثة محملة ب 12 ألف ليرة (livre)، تبرع بها لويس الثالث عشر أنشأت مستشفى (Lazaret)، حيث ظل المستشفى الوحيد المتواجد بالجزائر حتى بعد سنة 1825، ورغم أنه أغلق سنة 1793م بعد طرد منظمة اللاّزريت من الجزائر، لكن تم إعادة فتحه بعد أن تدخل نابليون، بإصدار مرسوم مؤرخ في 31- 07- 1806، قدم فيها إعانة مالية سنوية لهذا المستشفى قدرت ب 3000 فرنك، كل هذا سمح بإعادة فتحه سنة 1825م إلى غاية إغلاقه نهائيا سنة 1827م، بعد الحصار البحري الفرنسي على مدينة الجزائر.[31] وفي سنة 1665 كانت الجزائر تحتوي على خمس مستشفيات على الشكل التالي: الأول والثاني تابع لسجن الباشا، الثالث في سجن (Douan)، أما الرابع فهو موجود في سجن شلبي، والأخير يسمى سانتا كتالينا.[32]

في سنة 1775م، قام أحد الآباء بإنشاء المستشفى الاسباني، والذي يعتبر أحد أهم السجون في تاريخ الجزائر العثماني ... كان هذا المستشفى يدار من قبل "رجل دين تابع لمنظمة الثالوث المقدس لافتداء الأسرى[33] أو منظمة سيدة الرحمة".[34]

إن الحياة الصحية في سجون الأسرى إجمالا تبدو مقبولة جدا، وهذا نظرا لتلك الظروف والفرص التي كانت تمنح للأسرى من أجل الترقي في المناصب، وخاصة أولئك الذين يعيشون في قصر الداي أو منازل كبار الدولة، فكثيرا ما كان ينتهي بهم المطاف كقادة للبحرية وفي بعض الأحيان كحكام للجزائر، وهذه الفرص كان من المستحيل الحصول عليها في بلدانهم الأصلية.

ويضاف إلى هذا أن كل سجن، كان يضم كنيسة أو مصلى صغير، مخصص للأسرى من أجل إقامة قداسهم، وتمتلئ هذه السجون في الأعياد عن آخرها لدرجة أن المصلين كانوا يصطفون خارجا، ويصف هايدو الوضع قائلا: "تصبح الأماكن مكتظة أيام الاحتفالات الدينية، ففي بعض الأحيان كان يتوجب إلقاء القداس في الخارج، وفي هذا اليوم لا يدع الحراس (الأتراك) أي شخص يمر دون أن يدفع صائمة[35] واحدة للدخول إلى المصلى، وهذا ما يجلب لهم مداخيل كبيرة".[36] وكانت الكنيسة تضم كل المذاهب الدينية المسيحية، حيث يسمح للأسرى بممارسة شعائرهم الدينية كل على حسب مذهبه... وفي أيام الأعياد، خاصة عيد الفصح ورأس السنة، تقام احتفالات ضخمة؛ وبهذه المناسبة يقدم القنصل الفرنسي العشاء يوم الأحد، والإنجليزي يوم الاثنين، والسويدي يوم الثلاثاء، أما الهولندي ففي بقية الأيام الأخرى.[37]

وتستخدم الغرف الواقعة في أسفل سجني البايلك وسجن جاليرا، كحانات يقوم بتسييرها عبيد، يدفعون للداي سناهية سنوية مقابل حق الامتياز، وذلك حسب مبيعاتهم من الخمور. يقوم القائمون على هذه الحانات بتحضير خمورها بأنفسهم في هذين السجنين، من العنب الذي يشترونه من الأهالي. وغالبا ما يلجأ إلى هاتين الحانتين الأتراك عندما يكون العبيد في الأشغال.[38]

ويقول كاثكارت: «كان يسمح للموظف في سجن جاليرا تسيير حانة في السجن ولا يدفع سوى نصف الرسوم المقررة، وشراء حانة لعينة في السجن، هو الذي مكنني من الحصول على المال في وقت لم يكن فيه زملائي في الأسر يملكون شيئا».[39]

طعام الأسرى ولباسهم:

إن الطعام واللباس كان يختلف على حسب الوظيفة والعمل المؤدى من قبل الأسرى، فطعام الأسرى المشتغلين بالأعمال الشاقة يختلف عن طعام المجدّفين، والمشتغلين لدى الحاكم أو أثرياء المدينة هم من كانوا يحصلون على وجبات أفضل بكثير من زملائهم في السجون.

في سنة 1812م وبعد أسر عشرة طواقم تابعة للقبطان إدوين (Edwin) - أصبحوا فيما بعد ملكا للداي- وجهوا مباشرة للعمل في نقل الصخور من المدينة إلى الميناء لبناء أرصفته، وتعزيز جدرانه، وإصلاح التحصينات المحيطة بالمدينة، وكان غذاؤهم عبارة عن خبز أسود قاس مع بعض من الزيت أو الحساء. أما أسرى البايلك فكانوا يزودون بثلاثة وجبات في اليوم

تتكون من خبز أسود، ويسمح لهم شراء الغذاء من أموالهم الخاصة، إضافة إلى ما كان يمنح لهم من تبرع المسيحيين الأحرار.[40] وتتوزع هذه الوجبات على الشكل التالي: على الساعة الثامنة صباحا يتناول هؤلاء الأسرى فطورهم المتكون من رغيف خبز، وصحن صغير من الخل وكأس من الماء، حيث يجلس الأسير مدة عشرة دقائق لتناول الفطور، ونفس الوجبة تقدم لهم على الغداء والعشاء.

وتذكر لنا إحدى المصادر الانجليزية أن طعام الأسرى كان يتكون من رغيفين من الخبز تزن نصف باوند (رطل)، ولا يسمح لهم تناول اللحم أو الخضروات، باستثناء من يعمل في البحرية، وهؤلاء يحصلون على عشر حبات زيتون في اليوم، وأفضلهم أولئك الذين يستقرون عند الداي أو في المستشفى.[41]

ويرى آخرون أن الغذاء المقدم لهؤلاء العبيد هو أربعة أرغفة من الخبز، وهو نفس ما يقدم لليولداش ، ولا يقدم لهم أي حساء من أي نوع من الغذاء. حيث يذكر أحدهم : "غذائهم في الأغلب يتكون من الخبز والماء لا أكثر ولا أقل"[42]، أما الأسرى المملوكين لكبار رجال الدولة فقد كانوا يأكلون من المطبخ الخاص بصاحب المنزل، ويقول بفايفر: "أما طعامنا فإنه لم يكن من النوع الذي كان يفرض علينا أن نشكو من الجوع. فقد كانت فضلات المطبخ كلها لنا وكذلك كل ما يتبقى فوق مائدة الوزير أو السادة الآخرين من أهل البيت".[43]

ويحدثنا كاثكارت عن الجوع الذي كان يتعرض له هؤلاء الأسرى في سجون الدولة (البايلك) بقوله: "وفضلات هذه الحيوانات (يشير إلى الحيوانات المفترسة التي كانت توضع في أقفاص بالسجون) توفر غذاء شهيا لحشود الفئران، وهي أكبر الفئران التي رأيتها في حياتي، وهذه الفئران بدورها، كثيرا ما يستعملها بعض العبيد المساكين لدفع غائلة الجوع الذي ينهش أحشاءهم. وكذلك يأكل بعض العبيد القطط بحكم الضرورة. وقد سألت أسيرا فرنسيا ذات يوم ماذا سيفعل بالقط الذي سلخه، فأجابني قائلا: "يتحتم على المرء سد الرمق".[44]

أما الذين يشتغلون في قصر الداي، فلهم مطبخ خاص بهم، حيث يتلقى الأسير طعامه وشرابه وموضع نومه في القصر، وأما لباسه والأمور الخاصة بالنظافة فيتلقاها مرة واحدة لدى نزوله في القصر، وبعد ذلك يتحتم على هذا الأسير تدبر شؤونه بنفسه.

ولباس هؤلاء المساجين هو عبارة عن قميص فضفاض (corsd) من القماش، وسروال داخلي وقفطان صغير من نفس النوع، والذي ينحدر إلى غاية الركبة، وقبعة بيضاء وزوجين من الأحذية، حيث يحتفظ بها الأسير مدة سنة واحدة، ويقول آخر: "كان يمنح كل عبد يصل الجزائر حزمة من الأمتعة، تحتوي حزاما و سترة، وصدرية (Waistcoast)، وقميص، وبنطالين، ولباس نوم."[45]

وأما أسرى كبار مسؤولي الدولة، فيذكر بفايفر أن لباسهم كان يتكون من قلنسوة حمراء وقميص وصدار من الصوف وسروالين ينتهيان فوق الركبة ونعلين من النوع الرخيص.[46] ويمنح عبيد الحاكم لباسا تركيا فاخرا، يتمثل في قميص فضفاض مفتوح الأكمام وسراويل تركية واسعة وأحذية وطرابيش حمراء.[47]

ولهذا فإن الأسرى الذي يرثى لحالهم بحسب فونتير دي باراداي، هم الذين يشتغلون في أعمال المنافع العامة. حيث يجب استثناء أصحاب الصناعات. أما الأسرى الذين يعملون عند الداي وكبراء الدولة، وعند أغنياء الترك والعرب واليهود، أو في المستشفى، أو عند آباء البعثة، فإن هؤلاء ليس لهم ما يؤلمهم إلا تذكرهم بأنهم أسارى، فهم يرتدون أفخر الثياب، ويأكلون أشهى الأطعمة، ولا يعملون إلا أعمالا طفيفة، ويمكنهم في مدة قليلة جمع المال الذي يفتدون به أنفسهم[48].

العقوبات:

لقد كانت تفرض العقوبات على حسب الجرائم المرتكبة من طرف الأسرى، فبعضها يستلزم عقوبات قاسية والبعض الآخر تكون خفيفة، وعموما فإن العقوبات لم تكن بالضرورة تتماشى وضوابط الإسلام، فأغلب هذه العقوبات كانت غريبة في تنفيذها.

فاليهودي أو النصراني الذي ينقص من معدن العملة تقطع يديه ويشنق ويطاف بجثته في أرجاء المدينة، وهذه العقوبة نفذت حديثا أي أوائل القرن الثامن عشر، ويرغم الجراحون الأسرى على القيام بالإجراءات المتعلقة بها، أما الضرب بالعصا فهو أكثر الأمور شيوعا، فهو يطبق على المتهمين في الأمور الأقل أهمية بحضور القاضي؛ ولليهود قاض خاص بهم، بينما النصارى لهم الحرية في رفع تظلماتهم أمام قناصل دولهم.[49]

ولعل أكثر عقوبات الضرب شيوعا هي "الفلقة"[50]، فقد كانت تفرض في الكثير من المخالفات، ويتوقف عدد الجلدات على شناعة الخطأ المرتكب من طرف الأسير، فمثلا في حالة إذا ما أراد هذا الأخير الهرب سيجلد خمسمائة جلدة، ويذكر هابنسترايت: "وعند القبض عليهم في حال الهروب يتعرضون إلى الضرب بالعصا، والذي يتم بطريقة لا تؤدي إلى موت الأسير إلا نادرا، لأن الأسير يعتبر جزءا من ثروة سيده"[51].

وإذا حدث ودخل أحد من هؤلاء الأسرى الإسلام وارتد، فسيحمَّرُ حيا، أو يرمى إلى الأسفل من أعلى أسوار المدينة، وعلى عقافات حديدية، تمسك بعظام الحنك والأضلاع، أو بأجزاء أخرى من الجسم.

ويعرف المذنب أثناء إسقاطه أنه سيعاني معاناة شديدة عدة أيام من حياته الباقية. وقد حدث هذا للمغامر الإسباني (Gascon John)، وغالبا ما يمارس هذا النوع من العقاب ضد الأسرى، غير

أنه في الوقت الراهن (أواخر عهد الدايات) بدأ إلغاؤه بصفة عامة، ويوجد هنا قانون، يحكم بموجبه على المرأة (العاشقة مع مسيحي)، بربطها ووضعها في قفص يرمى به إلى البحر.[52]

ويرى آخر أن حرق الرأس كان يتم إما بداعي العقاب أو التسلية... ويصطف العبيد مساءا ليسمعوا أسماءهم في السجل، ثم يقادون إلى بوابات المدينة، حيث يطالبون بالذهاب بأنفسهم إلى السجن، وكل عبد لا يصل بعد ربع ساعة إلى هناك، أو أي واحد منهم نسي ذكر اسمه للمنادي داخل السجن، يقيد بأحد الأعمدة من رجليه ويديه. وفي الصباح تنزع عنه القيود ويتعرض لعقاب جديد يتمثل في الضرب بالعصا "الفلقة"، غالبا بين مائة والمائتي ضربة. وهناك أيضا عقوبات أخرى، حيث يرمى الأسير من أعلى الجدار إلى الأسفل ليقع على كلاليب حديدية حادة.[53]

مقارنة بين وضعية الأسرى بالجزائر و البلدان الأوربية :

إن فهم وضعية السجون في الجزائر لا يتم إلا بمقارنتها بغيرها من السجون الأوربية، وهذا بالبحث في حالة الأسرى المسلمين في هذه البلدان، أولئك الذين عُمِّدُوا وبقوا عبيدا رغم تخليهم عن الإسلام. إن دور الكنيسة في هذه الدول كان واضحا من خلال محاكم التفتيش، والتي كانت تعمل كمحقق تابع للبابا الكاثوليكي ضد "الهراقطة" و"الكفار" المسلمين حسبهم.

يعتبر دارندا Aranda أن السجن في الجزائر كان يمثل جامعة بالنسبة للأسرى، فهو يحوي أكثر من عشرين لغة، ويعتبر مدرسة لإتقان اللغات تجريبيا. في حين يرى فرنسيس نايت Francis Night، والذي كان أسيرا في الجزائر لمدة سبعة سنوات، أن آلاف البحارة المسيحيين يفضلون الإقامة في سجون الجزائر على التعفن في السجون اللّيفورنية، أو الموت من "الجوع والبرد"، في السجون الإنجليزية".[54]

ويصر دوطاسي، وكذلك غيره من الملاحظين، على أن أولئك الأعضاء في منظمة الافتداء بالجزائر، كانوا يخبرون بحكايات مبالغ فيها، ويستعرضون الأرقاء السابقين في محفل مهيب... بلحاهم غير المحلقة... وبوجوه تعسة... وهم مثقلون بالسلاسل وبذلك سيطروا على عواطف الناس الذين كانوا "يرمون بالذهب والفضة في الأواني..." وقد يكون الرهبان مذنبين في ذلك، كما يؤكده دوطاسي.[55]

وتذكر دخيليه Dakhilia أنه كان يسمح للمسيحين المقيمين في البلدان الإسلامية، إقامة مصليات صغيرة، ومستشفيات في سجونهم (les Bagnes)، تدار من قبل رجال دين أوربيين، خاصة الأسبان، وتوفر لهم مقابر، يدفنون بها على حسب طقوسهم الدينية، على عكس ما كان يحدث في فرنسا مثلا، فالحرية كانت محدودة، حيث أنهم لم يحترموا الانتساب الديني لأسراهم المسلمين.[56]

في الثامن من شهر نوفمبر من سنة 1548م أنشئ بيت التنصير أو "التعميد" كما ورد في الوثائق التاريخية البابوية الفاتيكانية، وهذا بغرض تنصير أو تعميد الأسرى المسلمين واليهود، وفي 12 يناير 1549م أصدر البابا بيانا لإبلاغ المقاطعات بضرورة البدء في تطبيق قرار التعميد.

والجدير بالذكر أن النساء الأسيرات المسلمات الخادمات في المنازل، لم يسلمن من التعذيب وسوء المعاملة، حتى بعد إجبارهن على اعتناق المسيحية، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر، ما حدث لـ: كسيبيكا كاتارينا، وهي أسيرة من بربريا أي شمال إفريقيا، والتي أرغمت على التحول إلى المسيحية، فقد نظرت إلى البحر وفي قلبها حسرة، وألم فبكت بكاء المهموم وقالت: " يا محمد أي ألم أحمله في قلبي ".[57] وفي سنة 1723م، قام الأب Benoit 13 بتعميد زوجين جزائريين يلقبان بالشريف Arceriffo مع طفلة تبلغ من العمر سبعة سنوات، بكنيسة سانت بيار.[58]

وأما سيسيليا وهي أسيرة من شمال إفريقيا أيضا، فقد اشتراها ألفونسو دي أكورينا وهو من باليرمو أيضا، لتشتغل منصب خادمة لزوجته، وقد أجبرت هذه الأسيرة على اعتناق النصرانية، وتمت معاملتها معاملة قاسية، حيث ذكرت سيسيليا أن سيدتها سيئة الطباع، وأنها حمّلتها ما لا تطيق، فقد ذاقت ذرعا بسبب المعاملات السيئة، كالتعذيب، والشتم، ولذلك صرحت سيسيليا أمام محكمة كنيسة صقلية، وعلى مسمع من سيدها، وسيدتها بأنّ إله المسيحيين ليس إلها ما دامت أسيرة، وتعاني شتى أنواع العبودية، وتذوق مختلف ألوان العذاب، كما وصفت سيدتها بأنّها خنزيرة.[59] وهناك حالات كثيرة فيما يخص التعميد الذي كان يفرض على المسلمين والمسلمات في روما الكاثوليكية.

ولدينا جدول يوضح أعمار الأسرى المسلمين ممن عمدوا في روما خلال القرن الثامن عشر، على الشكل التالي:[60]

الأعمار	الرجال	النساء
حتى العشر سنوات	06	06
10 - 19 سنة	54	03
20- 30 سنة	116	09
30- 39 سنة	71	03
40- 49 سنة	24	01
50- 59 سنة	11	- -
60- 69 سنة	06	- -
70- 79 سنة	01	- -
المجموع	289	22

وهناك أيضا جدول آخر يوضح أسرى البلدان الإسلامية المجلوبين إلى إيطاليا بين القرنين السابع عشر والثامن عشر، كالآتي:[61]

البلد	1614- 1621	1796- 1798
القسطنطينية	20	06
الأناظول	09	01
سوريا، مصر	01	02
الجزر العثمانية		- -
اليونان	07	03
إفريقيا السوداء	07	04
الجزائر	02	08
تونس	03	19
طرابلس	02	09
المناطق الأخرى للمغرب	02	- -
المغرب	06	02

الخاتمة:

ما نستشفه من خلال هذه الدراسة أن وضعية الأسرى في الجزائر، كانت أفضل بكثير من وضعية المسلمين في روما وأوربا، لكن الدعاية المسيئة التي طالت الدول المغاربية، جعلت الأمر أكثر صعوبة في فهم الوضعية الحقيقية للأسرى الأوربيين في الجزائر، فالمدرسة الغربية استطاعت أن ترسم نموذجا قاسيا للجزائر في رؤوس الأوربيين، مستغلة ذلك النقص الذي خلفته المصادر العربية والتي اهتمت في غالبها بالجانب الديني، وكما يقال: "هم يملكون أسوء سلعة بأحسن ترويج، في الوقت الذي نمللك فيه نحن المسلمون أحسن سلعة بأسوأ ترويج".

وإجمالا فإن البحث في موضوع السجون في العهد العثماني، كان ولا يزال بكرا في الأبحاث الجزائرية، وما كتب عن الموضوع يعد قليلا، وهذا ما يجعلنا نحن الباحثين مطالبين بالبحث في الموضوع وإثرائه، بما يزيل الغموض والفكرة الخاطئة لدى طلبتنا عن التاريخ العثماني.

الهوامش:

(1) **البانيو** : لفظ أوربي، أطلق على السجون المخصصة للأسرى الأوربيين في الجزائر.

(2) Pierre Dan .R.p, Histoire de Barbarie et de ses corsaires des royaume, et des villes d'Alger, de Tunis, de salé, et de tripoli, Paris, chez pierre Rocolet, Imprimeur & Libraire ordinaire du Roi, 1646, p87,89.

(3) علي يتشنين: حاكم الجزائر 1645 وأحد أعظم رياسها، حيث كان يلقبه البعض ملك الجزائر حتى قبل توليه الحكم، ذو أصول إيطالية إسمه الأصلي بيشيني. أنظر: مروش المنور، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، القرصنة، الواقع الأساطير، ج2، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009

(4) De Grammont. H. D, Histoire d'Alger sous la domination Turque (1515-1830), Ernest Eroux Editeur, Paris, 1887, p178.

(5) Robert. C. Devis, Cristian slave, Muslum masters, White slavery in the Mediterranean, the Barbary coast and Italy, Palgrave Macmillan, New York, 2003, p125.

(6) De Grammont, op.cit, p241.

(7) Berbrugger A, Charte des hôpitaux Chrétiens d'Alger, A. Jourdan, Libraire-éditeur, Alger, R.A, N°3, 1949, p134.

(8) Ibid, p136.

(9) Tournier Jules, Jean le Vachier, Prêtre consule de France et Martyre (1647- 1683), Les éditions la porte, Rabat, 1947, p171.

(10) De Tassy Laugier, Histoire de Royaume d'Alger, Henri du Sauzet , Amsterdam, 1837, p164.

(11) حمدان بن عثمان بن خوجة، المرآة، تر. محمد العربي الزبيري، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007 ، ص122.

(12) Haedo Fray Diego, Histoire des rois d'Alger, Tr. de Grammont. H.D, Adolphe Jordan, Alger , 1881, p40.

(13) ملك ابن العباس: هو ملك قلعة بني عباس الواقعة في أعالي سلسلة البيبان وسط أرض جبلية وعرة، وقد وجد العثمانيون صعوبة جمة في ضم هذه القلعة، التي تمكنت من المحافظة على استقلالها طول الفترة العثمانية. أنظر: بنوجيت يوسف ، قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر للميلاد، ترسامية سعيد عمار، دار النشر دحلب، الجزائر، 2007.

(14) Haedo Fray Diego, Histoire des rois…, op.cit, p120.

(15) Haedo Fray Diego, Topographie et Histoire générale d'Alger, Tr. Mounreaut et Berbrugger, 1870, p203-204.

(16) María Antonia Garcés, Cervantes in Algiers a Captive's Tale, Nashville : Vanderbilt University Press, 2002, p38.

(17) Maria Martin, History of the captivity and sufferings of Mrs. Maria Martin, Printed for W.Crary, Boston, 1807, p49.

(18) Audisio. G, Recherches sur l'origine et la signification du mot « Bagne », A. Jourdan, Libraire-éditeur, Alger R.A, N°101, p365.

(19) Playfair, E. L, The scourge of Christendom, Annales of British relations with Algiers prior to the French conquest, London, Smith, Elder, And Co, 1884, p10.

(20) جيمس ويلسن ستيفن، الأسرى الأمريكان في الجزائر 1795/1796، تر.على تابليت، منشورات ثالة، الجزائر، 2007، ص215.

(21) Haedo Fray Diego, Topographie…, op.cit, p203.

(22) كاثكارت، مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، تر. إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص93.

(23) Playfair, E. L, op.cit, p48.

(24) جيمس ويلسن ستيفن، مصدر سابق، ص216.

(25) نفس المصدر والصفحة.

(26) Haedo Fray Diego, Topographie…, op.cit, p196.

(27) De Tassy Laugier, op.cit, p240.

(28) Ibid, p203.

(29) هو أحد أعظاء منظمة الثالوث المقدس المكلفة بتحرير الأسرى من الجزائر،

(30) Berbrugger A, op.cit, p135.

(31) Mostapha Kiati, Histoire de la Médecine en Alger, de l'antiquité à nos jours, Édition ANEP, Alger, 2000, p87.

(32) Ibid, p136.

(33) تعتبر منظمة الثالوث المقدس أشهر منظمة تعنى بافتداء الأسرى، تأسست على يد جون دو ماتا 1198، وبعد أربعين سنة من تأسيسها أصبح لديها 600 مقر، وانتهت هذه المنظمة بإقرار مؤتمر فيينا إلغاء العبودية سنة 1815.

(34) Garrot, Histoire générale de l'Algérie, Alger, 1919, p65.

(35) **الصائمة**: Aspre عملة من الفضة تساوي حوالي 1.4 سنتيم و0.18 فرنك. أنظر:

T.Shaw, voyage dans la régence d'Alger, Trad. de l'anglais par J.Maccarthy, Tunis, Ed. Boushama , 1980

(36) Haedo Fray Diego, Topographie…, op.cit, p203.

(37) Playfair, E. L, op.cit, p10.

(38) جيمس ويلسن ستيفن، مصدر سابق، ص216.

(39) كاثكارت، مصدر سابق، ص128.

(40) Playfair, E. L, op.cit, p11

(41) The Cruelties of The Algerine Pirates shewing The present dreadful State of The English Slaves, and other Europeans, at Algiers and Tunis; with the horrid Barbarities inflicted on Christian Mariners shipwrecked on the North Western coast of Africa and carried into perpetual slavery, Printed by W.Hone, London, 1816, P06.

(42) A short History of Algiers, with a concise view of the origin of the rupture between Algiers and the united states, 3rd Ed, New- York, Published by Evert Duyckinck, 1805, p93.

(43) سيمون بفايفر ، مذكرات جزائرية عشية الاحتلال، تر. أبو العيد دودو، دار هومة، الجزائر، 1998.

(44) كاثكارت، مصدر سابق، ص60.

(45) Gregory Fremont-Barnes, The Wars of the Barbary Pirates, To the shores of Tripoli: The rise of the US Navy and Marines, Osprey Publishing, New-York, 2006, p72.

(46) سيمون بفايفر ، مصدر سابق، ص19.

(47) كاثكارت، مصدر سابق، ص22.

(48) أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766- 1791، سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص207.

(49) هابنسترايت، رحلة العالم الألماني: ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ - 1732م)، تر. ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الاسلامي، تونس، 2008، ص39، 40.

(50) الفلقة، أو (الفلكة) ، هي عبارة عن تثبيت شخص ما وإلقائه على ظهره ورفع قدميه، وتثبيتهما على كرسي أو على طاولة أو ربطهما على عمود يمسكها شخصان ،وجلده على أسفل قدميه بواسطة حزام جلدي أو عصا خشبيه.

(51) هابنسترايت، مصدر سابق، ص43.

(52) جيمس ويلسن ستيفن، مصدر سابق، ص216.

(53) Gregory Fremont-Barnes, op.cit, p74.

(54) FISHER (Sir Godfrey), Légende Barbaresque : Guerre, Commerce et Piraterie en Afrique du Nord de 1445 à 1830, Trad. et Annoté par Farrida HALLAL, Office des Publications Universitaires, Alger, 2002, p157.

(55) جون. ب. وولف، الجزائر وأوربا، تر. أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1986، ص216.

(56) Dakhilia. J, Musulmans en France et en grand Bretagne à l'époque moderne: exemplaire-invisible, p287.

(57) ابراهيم سعيود، "وثيقة أرشيفية بابوية تتعلق بتعميد الأسرى المسلمين (قراءة تاريخية)"، الملتقى الوطني الأول حول الوثائق الأرشيفية والتراث المخطوط بين الماضي والحاضر، 24- 25 نوفمبر 2013، بوسعادة، ص05.

(58) المرجع نفسه، ص06.

(59) إبراهيم سعيود، "من تراث الأسرى الجزائريين في إيطاليا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر"، المجلة التاريخية المغاربية، العدد السابع والثلاثون، العدد140، جويلية/ أيلول 2010، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، ص75.

(60) De Collenberg Wipertus Rudt, Le baptême des musulmans esclaves à Rome aux XVIIe et XVIIIe siècles. Le XVIIIe siècle, In: Mélanges de l'Ecole française de Rome. Italie et Méditerranée, T. 101, N°2. 1989, p523.

(61) De Collenberg Wipertus Rudt, op.cit, p527.